شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥٠

الاختلاف أحكامه والموقف منه (١)

الفهرس

الاختلاف أحكامه والموقف منه (١) [١] ١

- الحاجة إلى بيان الخلاف والاختلاف ٢
- إرادة الله تعالى في الاختلاف ٣
- حكمة الله تعالى من الاختلاف ٤
- خلاف الرحمة ٧
- إتباع الكثرة ٩
- مراتب الخلاف ١٠
- الخلاف في الأصول ١٠
- حدود حرية الإنسان في الاختيار ١١
- حديث الفرق المفترقة ١٣
- الموقف من خلاف الفقهاء ١٤

[١]) رابط الحلقة

الحاجة إلى بيان الخلاف والاختلاف

الاختلاف والخلاف الحاجة إليه من المهمات والضروريات وذلك في جانب الدين والدنيا وأهميته أن الله جعل الناس من جهة القدر مختلفين على أنواع وصور ، فجعل الله خلقتهم مختلفة من حيث شهواتهم ورغباتهم ونوازعهم النفسية وكذلك الخليقة فالإنسان متباين بأجناس وألوان ولغات مختلفة .

ومن الناس من يخلط بين الاختلاف الكوني وبين الإرادة الشرعية فهل الإنسان مخير ؟ يختار ما شاء مما يقتنع به ؟ ولماذا إذن أنزل الله تعالى الكتب وأرسل الرسل وأمر الناس بالإتباع فيجد تعارض !.

وما الفرق بين ما نهى الله عنه من الاختلاف والفرقة وأمر بالاجتماع وما يذكره الفقهاء من أثار وأخبار مروية ، وهل الخلاف رحمة على الإطلاق ؟ .

وهناك من يرويج الباطل تحت ستار الخلاف ، فما هو الخلاف المعتبر وغير المعتبر ؟ .

فكثير من أهل الباطل يحاولون ترويج أن الخلاف حق وأنه من اختلاف الرأي .

وهل ثمة تلازم بين إرادة الله الكونية لخلق الناس على اختلاف وبين إرادة الله وأوامره الشرعية بالامتثال التي أمر الله بها ؟ هل تضاد ما خلق الله عليه الخلق على اختلاف وأجناس ؟ ؟

كل هذا يحتاج لبيان وتمحيص ، وكذلك المواضع التي يضعونها الناس من كلام العلماء والأدلة في مواضع خطأ مما يشير إلى أن الخلاف رحمة والأدلة التي تشير إلى أن الخلاف مذموم .

فمن الناس من يقول الخلاف سعة ثم نرى السلطان والحاكم يريد أن يجمع الناس على قوله !. فهو يرى الاجتماع واجب من وجه ويرى اختلافهم سعة ورحمة من وجه أخر ! فما هو الحد والضابط للرحمة والعذاب في مسائل الخلاف ؟ وما هو الضابط؟.

وهذا ما يحتاج لتقرير وبيان وتفصيل على ضوء ما بينه الله في كتابه الكريم ونبيه ﷺ في سنته .

إرادة الله تعالى في الاختلاف

الله عز وجل له إرادتان إرادة شرعية وإرادة كونية والإرادة الكونية هي التي يخلق الله عليها الخليقة وقد أوجد الله الخير والشر وخلق جميع الكون على اختلاف أجناسه وألوانه ورغباته ، خلق الله هذه الخليقة على اختلاف وتباين فخلق الكفر وخلق الكافرين ، وأوجد الإيمان وأوجد المؤمنين ، وبعث رسله وأنزل كتبه وجعل من يكون عدو لهم من إبليس وذريته ثم أمر الناس وجعل لهم إرادة يختارون بها .

فالحكمة في الاختلاف والتنوع حكمة شرعية وحكمة كونية الكونية هي ليختبر الله الطائعين فلو لم يخلق إلا إيمانا وخيرًا محضا بابتداء وانتهائه ولم يخلق إلا مؤمنين لم يكن ثمة حاجة لمواضع الابتلاء والاختبار ، فحتى في التعليم لابد في الاختبار ثمة احتمالات للخطأ يعرف الطالب منها الصواب ولهذا يعرف المتعلم المتفقه بمواضع الاختبار وإذا وقع في خطأ إشارة إلى أن الخطأ موجود وقد قصر في إدراكه وعمله كذلك الله تعالى – وله المثل الأعلى – أوجد الشر ليس لاختيار الإنسان له ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود:١١٨) فجعل الله الناس على اختلاف وأنواع وأوجد نفوس متباينة من جهة الرغبات والميول وأوجد الله أوامر شرعية هذه الأوامر الشرعية التي بينها الله ليختبر الناس من يتبع الحق ومن يتبع الباطل حتى يستحق الذي يتبع الحق الثواب ويستحق المخالف العذاب إذا كانت مخالفته عن علم وبينة وبصيرة .

وينبغي أن نميز بين خلق الله للشر وبين أمر الله بالخير فخلق الله للشر في ذاته لم يخلقه ليتبعه الناس ولكن نوع من الاختبار الذي يجعله الله في الأمم به يعلم المتبع من المخالف وبه يتمايز الناس الصالح من الطالح المصلح من الفسد يبتلي الله هؤلاء بهؤلاء حتى يرون حكمة الله في تسير الأمور وتدبيره فيعرف الممتثل ويعرف العاصي والمعاند .

حكمة الله تعالى من الاختلاف

خلق الله تعالى الشر قدرًا ثم أمر الناس باختيار الخير وجعل فيهم إرادة والله قادر على أن يجعل الناس على طريق واحد لا يخرجون عنه ; لذلك يقول تعالى﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود:١١٨) فهو القادر على خلقهم على نمط واحد فيجمعهم على حد السواء كحال الملائكة ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ ولكن الله جعل فيهم إرادة ذاتية وجعل فيها شيء من المقاومات ونزغات الشيطان وجعل لهم عدوًا منهم من الداخل وهو النفس الآمارة بالسوء وعدوًا من الخارج من شياطين الإنس والجن ، وأوجد الله الشهوة في الإنسان وهي تتباين من مأكل وملبس ومنكح وغير ذلك من المتع فهذا نوع من الاختبار فينبغي أن نعلم أن الله لو لم يجعل هذه الأنواع وهذه الاختلاف وهذه المطامع لما كان للمتعبدين مزية ولم يكن لوضع النار والجنة مزية ولا مراتب ودرجات لاختلاف الطائعين والمقبلين على الله فجعل الله النار على دركات فمنهم المنافقون في الدرك الأسفل من النار والعصاة على دركات .

لهذا ما يتعلق بحكمة الله من هذا الإيجاد هو الاختبار والاعتبار حتى يعتبر الناس بما مضوا ويعتبروا بهذه الحكم الإلهية التي أوجدها الله ليختبر الصادق من الكاذب والمتبع ممن يخالف أمر الله ويتبع هواه فإذا أردنا أن ننظر في كلام الله فقد ذكر الله الابتلاء وربطه بتنوع الخليقة ، يقول تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود : ٧) فجعل الزينة وركب في نفس الإنسان مطامع فكان الابتلاء وكذلك يبتلي الله الإنسان بالخير كما يبتليه بالشر ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] فجعلها الله بها يتمحص الإنسان ويميز الإنسان الخبيث والطيب ليتأثر بمن حوله حتى يميز الخبيث من الطيب وهذا ما يمارسه الناس في دنياهم وفي حالهم فتجد في مواضع التعليم قد ينصرف الإنسان عن العلم والإبداع والنتاج فينشغل بالفتن من

السكر والمجون والنساء ويدع العلم وهذا يراه الناس منحرفًا ومبتعد عن الإنتاج ونحوه فهذه الدائرة اختبارية بالنسبة للبشر ووالله المثل الأعلى حينما أوجد هذه الاشياء وأمرهم بخلافها فأمر الله الناس أن يتبعوا الأمر الشرعي ولو وجدوا في أنفسهم ميلا لغيره ; ولهذا نقول إن الله أوجد هذه الأشياء القدرية اختبار ولهذا جاء في الحديث (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)[٢] يعنى ميله لها اختبار ولو كانت النار محفوفة بالمكاره ما أقبلوا على النار ولم يكن ثمة مواضع للابتلاء .

والابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب يقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة : ٩٤) حرم على المحرم حينما يتلبس بإحرامه أن يصيد برغم أنه يمشي في البرية وثمة مساحة بينه وبين الحرم وربما يرى صيد وهو جائع ولكن حرمه الله وأخرجه له وجعله في طريقه كنوع من الاختبار وقد يقول لماذا التحريم وهو في البرية نقول في مثل هذا السفر الله لا يهلك الإنسان ولكنه موضع اختبار .

والله غرس في الإنسان ميل لتنوع المآكل والاستكثار للمال فإن لم يحصله تشوف للربا والخديعة والسرقة والغش وكذلك في المأكل والملبس والجاه والسيادة يستعمل الرشوة ليصل لمبتغاه فجعل الله في هذا رغبة في الإنسان يقابلها من جهة الشريعة كبح الجماح بتحريم السبل وجعله أمرًا لتتحقق خيرية الأمة وهي سنة المدافعة التي يصلح الله بها الدنيا والأخرة .

وقد جعل هذه الحكمة الظاهرة من جهة الامتثال حتى يختار الإنسان أمر الله على غيره وأما من يقول إن الله أوجدها فلي الحرية في اختيارها !!.

نقول إن وجود الخير والشر ووجود الحق والباطل ليس مسوغ للإنسان أن يختار فقد أوجد الله الكفر وأوجد الحلال والحرام ليس ليختار الإنسان منها ما يشاء وقد يقول قائل لماذا ؟ نقول الله قد أوجد من السموم والأمراض والأوبئة فلماذا يفر منها ؟. إذا كان الإنسان مخير أن يختار بين الموجودات فالله

[٢]) صحيح مسلم - الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)
سنن الترمذي - صفة الجنة (٢٥٥٩)
مسند أحمد - باقي مسند المكثرين (١٥٣/٣)
مسند أحمد - باقي مسند المكثرين (٢٥٤/٣) .

أوجد شذوذ الأراء والأفكار كما أوجد السموم والمهلكات فلا مسوغ لاختيارها ، فهل يتناول الإنسان السم ويفسد بدنه باعتبار أن الله قد أوجده !. كذلك ليس للإنسان أن يأخذ بشذوذ الأفكار ويحتج بأن الله أوجدها ، بل عليك أن تحافظ على حياة الأخرة كما تحافظ على دنياك بعدم اختيار السموم والمهلكات ولكن لما غابت الأخرة وعظمت الدنيا في الأبصار تناقض الإنسان فلا يختار إلا ما يعمره ويبقيه ولكن يختار لآخرته ما يشاء والله قد أمر بالنهج على طريقه وعدم الميل لرغبات الأنفس.

لهذا جاءت الشرائع تخالف الموجود وربما لا يقتنع به الإنسان فالإنسان ربما يقتنع بالباطل ويظنه حق كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤) أي أن الإنسان ربما يظن أن هذا القول وهذ العقيدة حق وهو على باطل وفي كلام الله أنه باطل فيكون في موضع اختبار بين القناعة الذاتية وبين أمر الله ومن يرجع لحكم الله كأن يقول الإنسان عقلي هو الحكم ! نقول له فما الحاجة للرسل وإنزال الكتب على الأنبياء فعقل الإنسان قاصر فعليه أن يكل الامر لله تعالى ويتبع الله عز وجل ولو خالف عقله .

وأكثر دعاء الإنسان في صلاته هو قوله الله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة :٦) فثمة صراط للمغضوب عليهم وثمة صراط للضالين وثمة صراط للذين أمنوا وثمة طرق غواية وقد جاء في بعض السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه " خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا ، ثُمَّ قَالَ : " هَذَا سَبِيلُ اللهِّ " ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَقَالَ : " هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " وَقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (سورة الأنعام : ١٥٣) "[٣].

فهذا من التنوع الموجود وعلة إيجاد لله الطرق لا تعني الاختيار وحرية الإنسان في أن يفعل ما يشاء فلو كان علة الوجود أن يختار ما يشاء لجاز أن يأكل السموم فالله أوجد السموم وملذات الطعام فنختار اللذات وندع السموم لاختبار العقل كذلك لابد من ترك الشر لاختبار الدين .

[٣]) أخرجه البزار في "مسنده" (٥/ ٩٩ رقم ١٦٧٧) من طريق جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، فذكره.

لهذا أوجب الله علينا أن نسلك الطريق المستقيم فيذكر الاختلاف ولا يمدحه بل ينهى عنه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران :١٠٥) وهم اليهود والنصاري﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران : ١٠٣) أمر الله بالاجتماع ونهى عن الاختلاف وإذا أدركنا أن الله يأمر بالاجتماع شرعًا قد يوجد الله أسباب الاختلاف قدرًا ولكن لا يأمر بها شرعا ، وقد يقول قائل ما الحكمة من إيجادها إذا كان الله لا يامر بها ؟ نقول هو الاختبار لمعرفة من يترك شهواته من شهوة الفرج والمأكل والمشرب وغيرها ليصل لمرضاة الله فحينئذ هذا الذي يستحق الثواب وأما المكابر المخالف هو مخالف لأمر الله تعالى وسار لعلة ليست مرادة من جهة إيجاد الخير والشر .

خلاف الرحمة

أولًا بالنسبة لقول (اختلاف أمتي رحمة) ليس بحديث عن النبي ﷺ ويذكره بعض من يتكلم في أبواب الأصول وهو ليس بحديث عن النبي ﷺ وإنما جاء عند البيهقي وعند الديلمي من حديث عبدالله بن عباس (اختلاف أصحابي رحمة) وفي إسناده ضعف فلا يوجد حديث بهذا اللفظ (اختلاف أمتي رحمة) فالاختلاف ليس برحمة من جهة الأصل فقد نهى الله عنه ولا يوجد حديث في مدح الاختلاف.

وأما ما جاء في حديث عبد الله بن عباس وفي اسناده انقطاع من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال (اختلاف أصحابي رحمة) رواه البيهقي في المدخل بسند منقطع ، وأخرجه الطبراني والديلمي في كتابه الفردوس وفيه ضعف ، ومع ذلك ذكر أصحابه ولم يذكر غيرهم على فرض صحة الحديث لأن أصحابه لا يختلفون في أبواب الأصول لأنه الشر بعينه وهو أعظم أنواع الشر في أبواب

الاختلاف وهو الخروج عن عبودية الله وتوحيده لذلك إذا قلنا أن جميع الاختلاف رحمة فما الحاجة لإرسال الرسل وإنزال الكتب بل ليختلفوا على ثلاثة وأربعة وخمسة ويستزيدوا من أمر الرحمة !

ولهذا إن التأصيل هذا تأصيل خاطئ ولا يوجد ما يعضده من كلام الله ورسوله بل الأدلة على خلافه وكذلك جاء النهى عن الاختلاف والفرقة كما في قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران :١٠٥) وكذلك في قول النبي ﷺ (لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ)[٤] فنهى عن الاختلاف وجاء في المسند والسنن (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : مَا مِنْ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ فِي قَرْيَةٍ ، وَلَا بَدْوٍ ، فَلَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ)[٥] أمر الله بالاجتماع وحث عليه ولكن الخلاف الذي ذكر عن الصحابة أنه خص خلاف الصحابة ولم يخص خلاف غيرهم لأن الصحابة في ذاتهم لا يختلفون إلا في الفروع وأما الأصول فيجتمعون عليها من مسائل الدين وأصوله والتوحيد وهذا ما ينبغي أن يحرر في مسائل مدح الخلاف وإطلاق أن الخلاف رحمة فالاتفاق هو الرحمة وهو الذي أمر الله به وأما خلاف السلف هو خلاف الرحمة في الأمة ولهذا ، وقد جاء للإمام أحمد رجل صنف في خلاف الصحابة فقال له سمه كتاب السعة ولا تسميه كتاب الخلاف .

وذلك كمسألة المسح على الخفين ومسائل بعض صفات الصلاة والوضوء وبعض نواقض الوضوء وبعض المسائل الفرعية في النكاح والعدد والطلاق وغيره لكن الأصل العام أنهم يتفقون ويجمعون على ذلك ، ولهذا يقول عمر بن عبدالعزيز (ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنه لو كان قولا واحدًا كان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يُقتدى بهم ، فلو أخذ أحد بقول رجل منهم كان في سعة)[٦] .

فهذا توسيع على الأمة في الشدائد فيأخذ بها في الضرورة فيكون ممدوحة للإنسان أن يفتي بها رحمة للأمة وتوسعة عليها .

---

٤) رواه أبو داود (٦٦٤) وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" .
٥) رواه أبو داود (٥٤٧) وأخرجه كذلك ابن المبارك (الزهد)(١٣٠٦)وأحمد (١٩٦/٥ و٤٤٦/٦)والنسائى (الكبرى)(٩٢٠/٢٩٦/١) و(المجتبى)(١٠٦/٢) ، وابن خزيمة (١٤٨٦) ، وابن حبان (٢١٠١) ، والحاكم (٣٣٠/١ و٥٢٤/٢) ، والبيهقى (الكبرى)(٥٤/٣).
٦) نقله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٨٠/٣ ، والشاطبي في الموافقات ١٢٥/٤.

إتباع الكثرة

الأكثرية والأقلية من المواضيع المهمة في الشريعة ، والأكثرية ليست معتبرة من جهة الحق والباطل فالقناعات تختلف من قرن لقرن فأكثرية الماضي أقلية لقرن تالي وهكذا ، والقناعات لا تعني أن الحق يتنوع ويتعدد فالحق في ذاته واحد منذ أن أوجد الله الحقيقة إلى أن يرث الارض ومن عليها والله تعالى أوجد الحق وجعله واحد في ذاته لا يمكن أن يتعدد لكن الناس تختلف منهم من يصيبه ومنهم من يأتي حول حماه ، والكثرة ذمها الله في مواطن عديدة ; كما في قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(يوسف : ٤٠) بين الله أن أكثرهم لا يشكرون ولا يعلمون ولا يفقهون فبين أن الأكثرية لا يعلمون الحق .

وأما مدح النبي (مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)[٧] فقد خاطب النبي ﷺ به ثلة أهل الإيمان فحينما تأتي بعلماء وصالحين تخاطبهم وتقول إن الأكثر يختلف عند مخاطبة الجهال فحينما تأتي بألف جاهل عالم واحد أعظم من ألف جاهل فالأكثرية ليست معتبرة من جهة النظر ولو حتى من جهة طب الأبدان فمليون جاهل لا يعتبروا أمام عالم واحد بالطب يعرف الداء والدواء فهذا من جهة النظر فلا عبرة لكثرة جاهلة ، والمراد بذلك الحديث أنه إذا كنا في دائرة الحق فالكثرة لها حظ وقرينة على تقديم الحق على غيره من أقوال الباطل والشر .

أما من يتبع الكثرة وهي ليست دليلًا على الحق فنقول إن طوائف عباد الأوثان أكثر من اليهود والنصارى سواء في الصين والهند الذين يعبدون الأوثان وغيرهم أكثر من مليارين أو ربما ثلاث مليارات يعبدون الأوثان والأصنام فهل هي أعظم من توحيد الله تعالى عما يشركون .

بل إن الحق في ذاته سواء فعله واحد أو فعله جماعة هو الحق ولهذا أنبياء الله وأتباعهم كانوا قلة في مقابل أكثرية تواجه رسالتهم التي كانوا يدعون إليها .

---

٧) رواه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩).

مراتب الخلاف

الخلاف يتباين فثمة خلاف شر وثمة خلاف رحمة ، وخلاف الشر على مراتب وخلاف الرحمة على مراتب وهو ما يكون في أبواب الفروع وأما أبواب الأصول فمنها ما يوقع في البدعة دون التكفير وأعلى مراتب الخلاف وأخطره الذي يخرج من الإسلام للكفر ولأجله أرسل الرسل وأنزل الكتب ولأجله أنشأ وخلق الجنة والنار وجعل الناس على فريقين من أصحاب الجنة وأصحاب السعير وأما خلاف الجزئيات والفروع فأمرها من أمر الرحمة يجعلها مكملة لذات الأصل ولهذا جاء عن النبي ﷺ أن دعوة الأنبياء دعوة واحدة كما جاء في الصحيح (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٨] المراد بالعلات هم الإخوة الذين يكونون من أمهات متعددة وأبوهم واحد فأراد أن الأبوة هي توحيد الله سبحانه وإفراده في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته .

ومن هذه الشرائع ما هو أصلي ويأخذ أحكام الفروع ومنه ما هو ظني لا يدخل الخلاف فيه في الكفر وإنما يدخل في دائرة الخطأ والبدعة والخلاف .

الخلاف في الأصول

الخلاف في الأصول هو الخلاف الذي يكون في توحيد الله والخلاف في توحيد الله إما أن يكون كفر أكبر مخرج من الملة وإما شرك أصغر الذي لا يخرج من الملة ولكن يجعله على شفا جرف هار في الكفر الأكبر والشرك الأكبر .

٨) رواه البخاري (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥).

والشرك الاصغر مرتبة أعلى من الكبائر كما أشار لذلك غير واحد من العلماء وهو ما يكون من جهة الألفاظ والأقوال والأعمال وهو أخطر من الكبائر لأنه جعله في دائرة عدم المغفور له كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ (النساء :٤٨) وهو إن كان طفيف من جهة صورته قول أو فعل ولكنه خطير من جهة التبعة .

وأما خلاف الفروع يتباين وهو الذي لا يكون في أصول الدين وإنما يكون في مسائل الفرعيات كأحكام الصلاة والصيام والمفطرات والصيام ونواقض الوضوء ، هل ينتقض بخروج الدم وأكل لحم الإبل ومس الذكر وكذلك في الصلاة هل تغطية المنكبين واجبة أو لا تجب ؟ وكذلك مسألة الحجامة تفطر الصائم أم لا ؟ وكذلك الزكاة وعروض التجارة وما وقع من خلاف يسير عند بعض أهل العلم ، وكذلك أنصبة الزكاة من البقر مما جاء فيه الدليل فيه ضعف ولين ، وكذلك مسائل الحج ومناسك الشريعة والفدية ونحوه ، وكذلك مسائل العدد والنكاح والطلاق وكذلك المواريث التي فيها خلاف مثل الإخوة لأم مع الإخوة لأب والجد مع الإخوة مما اختلف فيه السلف ، وكذلك فيما يتعلق بالتعزير والحدود والعقوبات ، وكذلك عدة المرأة بالحيض أم بالشهور وكذلك بعض صور الرجل وأحكامه من أحكام اللباس وعورته والمرأة كذلك فهذا من خلاف الرحمة لا يعنف على هذا ولا يبدع ولا يفسق وإنما يبين له الدليل وأقوال النبي ﷺ في ذلك حجة فأظهرهم دليل وأصحهم هو الذي يكون القول الراجح وقول غيره مرجوح .

حدود حرية الإنسان في الاختيار

الاحتجاج بقدر الله على ما يفعله الإنسان من معاصي وضلال هو طريق الجاهلين فالله لا يمكن أن يأمر بالشرك لمجرد اختياره فالله قد جعل لك مشيئة ولم يجعلها في غيرك من المخلوقات مثل الكواكب والنجوم يسيرها الله فلا تسير بمشيئتها وإنما يسيرها الله كما يريد وأما الإنسان جعل فيه مزية يكتسب

بها ويسير وهي التي يكون عليها العقاب والثواب ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الإنسان : ٣٠) بعد مشيئة الله وجعل لك حرية الاختيار ولكن تعاقب عليها وتنهى عنها فحرية الاختيار بالقتل مقابلة لحرية العقاب وكذلك حدود العقاب والاختيار يحكمها حكم الله تعالى لا ذوق الإنسان وحسه فحرية الإنسان تنتهي بحدود الله فتفعل ما تشاء حتى حدود الله وأما فلاسفة الغرب الذين يقولون وبعض سادة الليبرالية الذين يتكلمون عن الحريات يقولون حريتك تنتهي بابتداء حرية الأخرين هذا كلام متجرد من الدليل لكن حرية الإنسان تنتهي بابتداء حدود الله فليس للإنسان تجاوز حدوده يقول الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة :٢٩] جعل الله عز وجل للإنسان أن يسير ولكن نهاه عن تتبع خطوات الشيطان قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(البقرة : ٢٠٨) يعنى إذا رأيت خطوات الشيطان فلا تسير وترجع ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾(البقرة :٢٢٩) فهذه الرسوم التي رسمها الله ليس لك أن تسير كما تشاء حينما يبلغك أن الله حرم هذا فتوقف ولا تتجاوز ، البس وكل ما تشاء فإذا رأيت حريرًا امتنع لأن الله حرمه على الرجال وكذلك الذهب حرمه الله على الرجال كذلك وعلى هذا ما حرمه الله قليل بالنسبة لما أحله الله عليه ، وكذلك المأكولات والمشروبات المحرمات تعد على الاصابع وأما ما أحله الله لا حد له ولا حصر فتجد أن الله عز وجل يذكر في كتابه المحرمات من المأكولات ولا يذكر ما أحله عدًّا لأنه لا يمكن أن يحصى فجعله نعمة ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل : ١٨) يعني لا يمكن أن يحصي نعمة الله عليه من متع السمع والبصر ، فالله خلق في الإنسان بصرًا وأجاز له أن ينظر لكل شيء ومنع له النظر في مسائل العورات ، وجعل له سمعًا ونهاه عن سماع الحرام كالتجسس وسماع المعازف وغير ذلك كذلك لكلام الإنسان يتكلم ما يشاء وحرم عليه السب والشتم والتعيير والغيبة والنميمة وغير ذلك من كلام الكفر والبهتان ولك أن تتكلم في الكلام الحل .

لهذا أوجد الله تعالى الحلال وأوجد المحرمات وجعل باب المحرمات أضيق من أبواب الحلال تواكبًا مع فطرة الإنسان حتى يكتمل انتظام الحياة ويكون موضع الابتلاء والاختبار ليستحق الثواب إن اتبع أو العقاب إن خالف .

حديث الفرق المفترقة

حديث الفرق حديث مشهور وقد جاء في المسند والسنن من طرق متعددة لجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كما جاء في السنن أنه قال ﷺ " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، فواحدةٌ في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، إحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده لَتَفْتَرِقَنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار"[٩] وفي رواية (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)[١٠] .

قول النبي ﷺ (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ) إشارة إلى أن هذه الفرق اختلفت وتظن وتتلبس بلباس الإسلام وخلافها ليس خلاف على التوحيد الذي لو فعلته خرجت من الملة وإنما هي طوائف بدعية ليست طوائف كفرية والطوائف الكفرية التي تفعل ما يخرجها من الملة ليست من الثلاث وسبعين كالجهمية وأضرابهم ومن يطوف على القبور ويسجد لها ويذبحون لها فليسوا من الطوائف الثلاثة وسبعين وبهذا الحديث نعلم أن الخلاف الوارد في مسائل الأصول والفروع أعظم وأخطر لأنه يؤثر على أصل الدين ويخرج هذه الطوائف من رحمة الله باعتبار فعلهم حتى التوبة والعودة لسعة الله ورحمته بالإتباع

[٩]) رواه ابن ماجه من حديث عوف بن مالك (٤٧٩) واللفظ له، وابن أبي عاصم في (السنة) (٦٣)، واللالكائي في (شرح أصول الاعتقاد) (١/ ١٠١)، كلهم من طريق عباد بن يوسف حدثنا صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك به.

[١٠]) رواه التِّرمذي (رقم ٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٢٨٤): أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه ، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف ابن مالك (وهي الجماعة) وأسانيدها حياد ، وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) .

وأما خلاف الفروع فهذه الأمة مرحومة ما كان على إتباع ما لم يكن مخالف لنص صريح واضح فإذا خالف النص الصريح الواضح ولو كان على علاقة عقلية إلى إتباع الدليل تسليما وإيمانا وتصديقا بالله أنه ما أراد بعباده إلا خيرًا .

الموقف من خلاف الفقهاء

الخلاف بين الفقهاء الأصل فيه أنه في الفروع وهو أيسر من الخلاف في الأصول لكن ثمة خلاف ما هو سائغ وخلاف ليس بسائغ ، الخلاف السائغ مثل ورود مسألة من المسائل لدى العالم وعدم ورود دليل لديه فإذا ورد الدليل عند أحد من أتباعه ليس له تنكب الدليل والاحتجاج بشيخه فالإمام معذور لعدم ورود الدليل عنده أو ربما رأى الدليل ضعيف فأخذ بغيره دونه قصورًا كأدلة القياس وهو من أدلة الاحتجاج فليس لأحد أن يأخذ بقول فقيه إذا بلغه الدليل وعليه أن يأخذ الدليل الصريح الثابت ولا يأخذ بأقوال الفقهاء .

وعليه فإن دائرة الخلاف عند الفقهاء أيسر لأنها في الفروع وهو من خلاف السعة وخلاف التيسير وليس للإنسان أن ينتقي ما يشاء من أقوال الفقهاء وإنما يعتمد على الدليل أو يأخذ من قول العالم الذي يغلب على ظنه أنه يمحص الأدلة ويتحرى الصواب والحق ويكون مقلد ومعذور إن شاء الله .